الإمام عبدالرحمن المهدي :- مداولات الندوة العلمية

على هامش الندوة العلمية :

للأحتفال المئوي (الإمام عبدالرحمن المهدي)

تحرير يوسف فضل حسن – محمد إبراهيم أبوسليم

الطيب ميرغني شكاك – مكتبة مدبولي 2002م

تقع المداولات في ما يقارب السبعمائة صفحة من القطع المتوسطة ، وتمت المداولات والندوة العلمية وبرامجها المصاحبة على إثر اقتراح ، تقدم به البروفيسور / قاسم عثمان نور بإقامة احتفالية بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد السيد عبدالرحمن المهدي المولود في 26 يونيو 1885م والمتوفي في 24 مارس 1954 [1]،. وبالفعل تكونت لجنة قومية لهذا الأمر برئاسة بروفيسور / محمد إبراهيم أبوسليم ، ومن ضمن مناشط اللجنة كانت هناك لجنة علمية برئاسة د. يوسف فضل حسن ومن يدي هذه اللجان ، خرج هذا السفر .

وتسعى هذه المقالة لقراءة تحليلية لما ورد في هذا السفر العلمي وهذا الجهد الممتاز في إبراز صورة رجل السودان الإمام عبدالرحمن المهدي ، صاحب مشروع المهدية الجديدة والتي تعد إنقلابا فكريا وروحيا على المهدية كما طرحها وعرفها ومارسها والده الإمام محمد أحمد المهدي وكما سار عليها خليفته الخليفة عبدالله التعايشي وهناك فوارق جوهرية بين المشروعين مشروع المهدية والمهدية الجديدة يمكن الإشارة لبعضها في الآتي :-

- المهدية دعوة دينية ، تستند على تراث ديني ، يقوم على إدعاء ولاية رحمانية تنزل على صاحب الدعوة ، لإقامة مشروع ديني بالدعوة والجهاد .
- المهدية الجديدة ، جهود في بناء كيان الأنصار وفق مطلوبات الإدارة الاستعمارية.
- المهدية تقوم على الخروج على الأوضاع القائمة ومحاربة الحكومة. وتجوز العنف وسفك الدماء لإقامة دولة العدل والسلام على انقاض دولة الكفر والظلام ، والمهدية الجديدة تتحالف مع الإدارة الاستعمارية وتقبل بمدارسها وإداراتها وكنائسها وجيشها ونظمها

---

[1] توفي السيد عبدالرحمن يوم الثلاثاء الساعة الاثمنة مساء الموافق 15 رمضان 1378- وقد توافق ذلك مع خسوف للقمر ربط العقل السوداني البسيط بينه وبين خسوف القمر .

- المهدية قامت على المفاصلة والخلوة والجلوة والمبارزة والعزلة الشعورية بينما قامت المهدية الجديدة على التفاعل مع الحراك الاستعماري والقبول بمعطيات المدنية الجديدة ومطلوبات الدولة القطرية القومية ومجابهة فكرة مطلوبات الأمة الإسلامية الواحدة .

وفي هذا الإطار نقرأ محتويات الدراسة التي تشمل خمسة عشرة مقالة وافية ، بينما تتمثل محتويات الجزء الثاني الوثائق والمراجع والمراشد والببلبوغرافيا والرسائل والجزء الثالث يدور حول حياة الإمام والمهرجان المقام بمناسبة شفائه وعودته من سويسرا – اكتوبر 1958 ثم احتفالات التأبين .

يستفاد من الدراسة أن السيد عبدالرحمن شخصية استثنائية نجحت تماما في مجال الحياة العامة بابعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولذلك ارتفع ذكره على عكس وضعية أخيه السيد/ على المهدي الذي عمل موظفا في حكومة السودان فمات ذكره وعلى خلاف ابن الخليفة عبدالله– عمر الخليفة الذي عمل ضابطا بالجيش الذي فتك بالأنصار وفتك بأبيه – وقد ظل المرحوم عمر الخليفة معارضا للسيد عبدالرحمن وناكفه وحالف من خالفه [2].

اختار السيد عبدالرحمن الأحوط والأسلم لكيان الأنصار ، الذي كان مهددا بالاستئصال ، وقد رأي بعينه هدم قبة المهدي ونبش قبره وإيداع رفاته في النيل ، كما عاصر مقتل الخليفة عبدالله ثم مقتل الخليفة شريف ومقتل الفاضل والبشرى اخوانه الكبار والذين ألقى كذلك برفاتهم في النيل ، وكان خياره إما أن يمضي في طريق المشروع الجهادي فيصبح مثل من سبقوه طعمة للأسماك أو يختار سبيل الحفاظ على الحياة وحياة الكيان وانتهي السيد عبدالرحمن إلى أن تبديد الأموال وسفك الدماء ليس أسلوبه المفضل – كما ندد بدعوات العيسوية وحكم على يدعي العيسوية بالخروج عن الملة [3]. وعن ذلك انقلاب جوهري على المشروع المهدوي وتعديله بحيث يكون متوائما ومقبولا للإدارة البريطانية .

فإذا كان المهدي قد الزم أبناءه وأنصاره وخصومه بالجلباب المرفع فإن السيد / عبدالرحمن اختار لبس القفطان ولوازمنه إشارة إلى المفارقة الشكلية لرسوم المهدية ، حيث أرسل المهدي الجلباب المرقع لغردون والزم به سلاطين وبقية الاسرى، بينما حظي السيد / عبدالرحمن بلقب سير في مقام النبيل الانجليزي والباشا في الدولة المصرية ، خبرات السيد ومراجعاته ، جردت عقل السيد تماما من فكرة الجهاد والعنف أو مقاومة الحكومة الاستعمارية التي توخت

---

(2) انظر مقالة محمد ابراهيم أبوسليم ، السيد عبدالرحمن وإمامه الانصار ، ص 132

(3) مقالة يوسف فضل حسن ، الإمام محمد أحمد المهدي ، صرح مؤسسي ، ص 7

في نظره العدالة وبسطت الأمن وأمنت الطريق لبلاد الحرمين ، مما مكن السيد عبدالرحمن من أداء فريضة الحج في عام 1927 بسهولة يسر وجعلت السوداني يحس بأنه اصبح قادرا على الوفاء بمطلوباته تدينه أكثر مما كان عليه في أيام المهدية .

لم يكن من الممكن للسيد عبدالرحمن ، الحفاظ على كيان الأنصار وطباعة راتب المهدي خمس طبعات [4]. ، ولو لم يقدم التنازلات المطلوبة والتي تقوم على أعتناقه لفكرة المواطنة وأن يقبل بأنه مواكن ممتاز في دولة المشروع الإدارة الإنجليزية ، وأن قبوله للمشروع يعطيه اسبقية وأولوية كمواطن ذو رتبة عالية ، تصبغ عليه الأعطيات والتصاريخ والاراضي ، وحتى اصبح يملك أكثر من 150.000 فدان زراعي مكنته أن يصبح أغنى أغنياء السودان ، لم يجمع السيد المال من أجل المال ولكن اتخذ المال وسيلة لرفع وضعية الاسرة والدعم المتواصل لمكونات المجتمع السوداني من تعليم وللصحافة ودعم للأفندية .

يمكن إظهار استثنائية السيد وجهاده ومراجعاته بمقارنته مع اخيه عل المهدي الذي اكتفى بأن يكون افنديا في سلك الإدارة الإنجليزية وكذلك مع ابن اخته حسين شريف الذي هو في ذات ابن الخليفة شريف الخليفة الرابع في المنظومة المهدوية الذي اكتفي بأن يكون صحفيا ورئيسا لتحرير صحيفة حضارة السودان التي صدرت بدعم وتشجيع الإدارة الإنجليزية لتأكيد القومية السودانية في وجه مصر وتركيا تحت شعار السودان للسودانيين [5]. كما أنهي السيد قطيعة المهدوية مع كثير من مكونات المجتمع السوداني ومد الجسور مع السيد على والمراغنة وأبرز كيان الأنصار ككيان متصالح مع المجتمع والدولة وحول طاقات الجهاد إلى مشروع روحي وفكري وتنموي وتعليمي ، وإن أخذ عليه توظيف طاقات الأنصار المادية والفعلية وتحويلها إلى فائض قيمة " السخرة" ليصبح أغنى أغنياء السودان ، بينما ظل الأنصار في الخدمة في سبيل السيد ، حيث كانوا يرون أن ذلك غاية مطمعهم في الوجود .

نجح السيد/ عبدالرحمن في كسب المجتمع السوداني وطمأنة مكونات المجتمع وأزال خوفهم من ترسبات النفوس حول ما جرته عليهم المهدية لأن الحراك المهدوي والمشروع المهدوي خصوصا في أيام الخليفة أدي إلى استقطاب شديد في المجتمع السوداني ، دفع بقادة دينيين (كالمراغنة) وقيادات سمانية كالخليفة محمد شريف نورالدائم وقيادات قبلية كالبطاحين والشكرية والشايقية بالإستجارة بالأجنبي لسحق المهدية ، ومما أهملته الحوليات السودانية أن

---

[4] المصدر السابق ، ص 16

[5] راجع مقالة محجوب محمد صالح ، دور السيد عبدالرحمن في نشأة ودعم الصحافة السودانية ، ص298

جيش كتشنر كان في حقيقته مؤلفا في قواعده من الجنود السودانيين وكانت القيادة للإنجليز وبعض المصريين .

وقد محى السيد عبدالرحمن بلاطفته ودبلوماسية وتواصله عقدة خوف الكثير من السودانيين على الأخص النيليين من كيان الانصار الجديد ، حيث تصالح مع غريم المشروع المهدوي الاول السيد على ودخل معه في منافسة بل خطف منه أولوية القرب من رموز الحكم الثنائي ، رغم اولوية السيد على في دعم المشروع الإنجليزي في السودان حتى جاء اليوم الذي أصبح للسيد عبدالرحمن الأولوية في مقامات الدولة الإنجليزية .

ولكن كذلك فإن اسهامات السيد عبدالرحمن وتفاعله مع اتراح وأفراح السودانيين كانت الأكبر والأهم– حيث تزاوج وزواج أهل السودان وانخرط في الحراك السوداني السوداني وكان من الداعمين والمؤسسين لصرح الصحافة السودانية والتعلم والنشاط التنموي – لذا الأعجب أن مدحه أكثر من 92 شاعرا سودانيا وسجلت في حقه مئات القصائد على مختلف السنة السودانيين كمحمد المهدي المجذوب والتجاني يوسف بشير ويحيي الفضلي وعبدالله الشيخ البشير والبنا ومحمد احمد محجوب ومحمد سعيد العباسي ، بينما هجا والد الأخير الإمام المهدي ذاته.

ماذا كان سيحدث يا تري ، لو أن السيد عبدالرحمن اختار طريق على المهدي أو الخليفة شريف مجرد بيدق في سلك الإدارة الإنجليزية؟ لم يك ذلك ليعني كثير شيء في سياسة الإدارة الإنجليزية ، إذ ربما تأخر استقلال السودان ، أو صنع الإنجليز غيره لملء الفراغ ، لأن الإنجليز كانوا قد اكملوا نواة الدولة السودانية ، وكانت على موعد مع فتح الغطاء، لتصبح في عداد تقرير المصير على ما حدث في مختلف المستعمرات، ابتداء من الهند مرورا بغانا وتونس والسنغال وكينيا وحتى مصر.

أوجد الإنجليز مكونات الدولة ممثلة في الحاكم العام " رئيس الجمهورية : ومجلسه: مجلس وزراء " وهناك مؤسسة عسكرية متكاملة " جيش وشرطة " وإدارة مركزية من مفتيشي مديريات ومراكز وخدمة مدنية وجهاز إداري في قاعدته إدارة أهلية ، وسلطة قضائية ونظام تعليمي – سكك حديدية ، مشروع جزيرة ، مطارات موانيء – مشاريع زراعية مروية وغير مروية.

كما أن مشاركة قوات دفاع السودان في الحرب العالمية الثانية جعلت السودان مؤهلا لتقرير المصير والحكم الذاتي والمجلس الإستشاري – ولم يكن للسيد عبدالرحمن أو السيد على أو مؤتمر الخريجين دور كبير في التطور الاقتصادي والدستوري وإن كان لمؤتمر الخريجين مساهمة كبيرة في التعليم الأهلي .

تمثل دور السيد عبدالرحمن في تفعيل المواعين والسياسات التي اختطها الإنجليز والتعجيل بانضاج مافي هذه المواعين ، أما الخيار الآخر للسيد – أي الجهاد ورفض حكم الكفار على طريقه السحيني أو على دينار كان يعني النهاية له ولكيان الأنصار. ولم يك ثمة خيار سوء الإندماج في المشروع الإنجليزي ونسخ المهدية في نسختها الاولى دون دمغها أو إدانتها والإكتفاء بتجاوزها.

ولقد عبر عن ذلك السيد الصادق المهدي في مقالته قائلا (لقد انقذ المهدية من مقصلة الإعدام وحمي الإنصار من خزعبلات عجائبية) [6]. ولعل في إدانة السيد الصادق لما اسماه بالخزعبلات العجائبية يمتد لكل التراث المهدوي الذي يقوم على الحضرة النبوية والرؤي المنامية واللامعقول كأساس للقيادة والمعرفة. فهذه الخزعبلات كما أسماها هي عند العيسويين كما هي عند المهدويين فتوي قطعية تجوز سفك دماء منكرهاز ولعل الصادق المهدي خلط بين المبشرات من الرؤي والتي هي مجرد محركات ذاتية لمن يتمثلها ويراها وبين من يلزم بها غيره ويسفك دمه فيها.

ومهما يكن ، فالدعوة للإسلام والتحرير لم تستوجب سفك الدماء ولا الحضرات ولا الإنكفاء ، فعجيب المانجلك من أهم الشخصيات السودانية التي وطنت للدعوة وللدولة في السودان وهو الذي بني معظم الأوقاف السنارية في الحجاز وهو الذي فتح طريق الحج ما بين بربره وسواكن في القرن السادس عشر الميلادي – ولم يحتاج في إصلاحاته وقيادته ومنهجه لحضرة نبوية أو إدعاء بصلة مباشرة بالذات الإلهية – وماذا عن الزبير باشا رحمة ، الذي ضم دارفور للكيان السناري ومن قبل ضم بحر الغزال على قذف ما فهمه من الثقافة الإسلامية . وكذلك رابح فضل الله الذي وطد أركان إمبراطورية إسلامية دون دعاوي لا تدخل في منظومة اللامعقول ودون خزعبلات.

دخل السيد عبدالرحمن في مكاتبات مع حسن البنا وجمال عبدالناصر وعدد من أصدقائه من الإداريين الإنجليزي السابقين [7].

ولكنه تجنب منهج البنا حتى لايجلب على نفسه غضبة إنجليزية ، أو لعله رأي في تراث المهدية ما يغنيه عن الوارد المصري ولم يك له عقده من الوارد المصري ، بدليل أنه قام

---

(6) الصادق المهدي ، عبدالرحمن الصادق ، إمام الدين ، ص 102

(7) مقالة ابوسليم ، مصدر مرشدي ، ص 460-467

بتعيين صحفي مصري اسمه حسن صبحي ليكون أول لرئيس لتحرير جريدة النيل [8]. وهي جريدة مهنية إخبارية تتجنب الخوض في تراث المهدية ، وتكتفي بالمهنية في نشر الخبر وتوطيد القومية السودانية.

يعتذر السيد الصادق المهدي لجده السيد عبدالرحمن بأن لكل وقت ومقام حال ولكل زمان وأوان رجال [9]., وهذا كلام عام لايرفع ولايؤخر ، ولا ينسخ القطعيات ولا يتجاوز ما جرى في التاريخ الإسلامي ، ولا يعطي إجابات عن الفرق بين النبؤة والدجل واللامعقول ، وليس فيه إجابة لسؤال لماذا لم تعطي المهدية أولوية لوحدة البلاد والمصالحة كما فعل عمارة دنقس وعبدالله جماع قبل المهدية بأربعمائة سنة ؟ وماذا أخذ السيد عبدالرحمن من المهدية ؟ وماذا ترك ؟ وهل عقل السيد اقرب لكتشنر أم للمهدي ؟ وهل عقد الشراكة الذي قامت عليه مجلة حضارة السودان ونص على تحكيم جناب المخابرات في جميع الأمور التي يختلف عليها اعضاء لجنة الإدارة وهم السيد على الميرغني ، والسيد عبدالرحمن والسيد الشريف يوسف الهندي مستمد من شرعة المهدي أم شرعة غردون / كتشنر . [10].

كما أن معاملات دائرة المهدي مع البنوك الاستعمارية وأعفاء الحكومة الاستعمارية له من قرض باركليز ونمو دائرة المهدي حتى أصبح لها محلجا وثلاث بواخر نيلية وطائرة وعربات وعلاقات مع بيوت الخبرة والمال التي أنشأها الاستعمار أقرب للمهدية ام لغردون وكتشنر .

سعى الأمام عبدالرحمن في. إنشاء الخلاوي والمساجد. بضغط المجتمع الأنصاري حوله. ولا توجد دراسة توضح إن كان ما أنشأه من خلاوي ومساعد يتكأفا مع جباه من زكوات وصدقات وهدايا – أم أنه زاد على ذلك من ماله الخاص – ويحدثنا كتاب ماسي الإنجليز في السودان لصاحبه أحمد خير بان ما أنشأه مؤتمر الخريجين من مدارس في خمس سنوات أكثر مما انشأه الإنجليز في خمسين عاما – ولقد دعم السيد عبدالرحمن كغيره مسيره مؤتمر الخريجين ودعم مدارس الأحفاد بالإضافة إلى بعض الجهود العلمية في الجزيرة أبا .

من المؤكد أن مداولات الندوة إضافة كبيرة ومقدرة للحركة العلمية في السودان ولحركة التدوين والتوثيق ونحتاج لندوة كهذه في شأن السيد على الميرغني والسيد الشريف يوسف

---

[8] مقالة ابوسليم ، السيد عبدالرحمن وإمامة الأنصار ، ص 104

[9] الصادق المهدي ، مصدر سابق ، ص 10

[10] عادل شرفي : دائرة المهدي ، المؤسسة الإقتصادية للإنصار ، ص 220

الهندي وكذلك السيد على دينار ومن هم في قامتهم من رجال الدولة والدعوة وشكرا . لمصنفي الكتاب ومن شارك فيه .

والسلام .

أ.د . حسن مكي محمد أحمد

الأحد 13 ربيع الثاني 1438 هـ

15 يناير 2017م